جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵙⵉⴷⵉ ⵎⵓⵃⵎⴷ ⴱⵏ ⵄⴱⴷⵍⵍⴰⵀ ⴱⴼⴰⵙ
UNIVERSITÉ SIDI MOHAMED BEN ABDELLAH DE FES

كلية الآداب و العلوم الإنسانية -ظهر المهراز
ⵜⴰⵖⵡⵍⵍⴰⵢⵜ ⵜⴰⵎⴰⵙⵙⴰⵏⵜ ⴰ ⵜⵓⵎⵓⵔⵉⵜ ⵜⵉⵏⵙⵏⴰⵏⵜ - ⵎⵙⵎⵓⵔ ⵏⵜⵎⵓⵔⴰⵣ
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Dhar El Mahraz

بسم الله الرحمان الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا ومحمد وآله وصحبه

مادة أدب مغربي وأندلسي// الفصل الرابع

شعبة اللغة العربية وآدابها

الأدب العربي بالمغرب الأقصى على عهد الدولة الموحدية

الشعر والمذهبية الموحدية

الأستاذ خالد سقاط

قامت الدولة الموحدية المصمودية على أنقاض الدولة المرابطية الصنهاجية، بعد أن اختلت أحوالها، وظهر الفساد، وانتشر المنكر، وبدأت تستقل القبائل بحكم نفسها وجماعتها. وكان ظهور دعوة محمد بن عبد الله بن ياسين بسوس في صورة آمر بالمعروف، وناه عن المنكر سنة 515هـ. ثار على تردي الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، حتى ضعفت الدولة الحاكمة، الغافلة عما يجري حولها. كما قيل.

ذكر في جل المصادر، أن محمد بن تومرت الموحدي كان قد رحل إلى المشرق سنة 501هـ، أي بعد حادثة إحراق كتاب "إحياء علوم الدين" لحجة الإسلام، أبي حامد الغزالي الطوسي الشافعي(ت505هـ)، الفقيه الأصولي المتصوف، والناس في المغرب والأندلس بين مؤيد لرواج الكتاب، وبين مخالف في الأمر. كان محمد بن تومرت رحل في طلب العلم، ولقاء العلماء، فلقي أبا بكر الشاشي(ت507هـ) ببغداد، وأخذ عليه أصول الفقه وعلم الكلام. وروى ابن خلكان أن ابن تومرت لقي أبا حامد الغزالي كذلك بالشام، أيام تزهده بها، وكذلك لقي الهراسي(ت505هـ) وأبا بكر الطرطوشي(ت520هـ)، وغيرهم كثير.

وقيل إن ابن تومرت استغل تراجع تأييد أبي حامد الغزالي للملوك المرابطين، بسبب موافقتهم على قرار قضاة المالكية بالأندلس والمغرب بإحراق كتابه، زمن علي بن يوسف بن تاشفين(ت537هـ)، خامس ملوك المرابطين، ليأخذ عليه ما خالف مذهب المرابطين، المعتمد على مذهب السلف، الذين أخذوا بترك التأويل وإقرار المتشابه. كما قيل أنه تزود بمذهب الأشاعرة في الاعتقاد، وخاصة في تأويل المتشابه في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وبعقيدة المهدوية، كذلك القول برأي فرقة الإمامية من الشيعة في القول بعصمة الإمام.

لقد قيل الكثير والغامض والغريب عن بداية الحكم الموحدي، وعن طرق التدليس والشعوذة واستدراج عقول العامة، التي كانت تركن للتصديق وعدم الجدال الذي سيطر أيام المرابطين.

لذلك نجد في المصادر تناقضا حول شخصية ابن تومرت، ويجمعها جل الدارسين، أمثال ابن خلدون، في أن دعوته اطلقت من أفكار إصلاحية، عمل على تنفيذها بالوسائل السلمية المألوفة، قبل أن تنتقل إلى طلب الملك لنفسه، فركب كل محظور للوصول لمبتغاه.

وكذلك عبد الواحد المراكشي في المعجب، نقلا عن ابن خلكان في وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، وهو كذلك ما ذكره أحمد بن خالد الناصري، صاحب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أن ابن تومرت اعتمد على نشر كرامات له، وعن استعماله للحيلة والذكاء والتدليس والخرافة، للوصول إلى حكم المغرب، واستمالة سكان المغرب الساذجين. ومما يحكى في المعجب أيضا، أنه كان ذُكر للغزالي ما فعل الأمير المرابطي بكتابه الإحياء، وابن تومرت حاضر في ذلك المجلس، فقال الغزالي داعيا على المرابطين: ليذهبن عن قليل ملكه، وليقتلن ولده، وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضرا مجلسنا. فلقي قوله هذا تصديقا بليغا في نفس ابن تومرت، مما قوى طمعه في الملك، وكان من قبل يحدث نفسه بالإجهاز عليهم. كما ذكر ابن خلكان أن ابن تومرت اطلع على كتاب "الجفر"، واكتفى به وبعلمه في

رحلته للمشرق، وفيه إخبار عمن سيملك المغرب بدعوته، وهو من ذرية الرسول(ص). وأن مقامه ومدفنه بتنميل. وفيه كذلك، أن تمكين دعوته واستواء أمرها سيكون على يد عبد المومن. كما أن ابن أبي زرع يروي في كتابه "الأنيس المطرب في روض القرطاس"، أخبارا أخرى عن المسألة. وكذلك لسان الدين ابن الخطيب في "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية". انظرها.

أما التوجه الثاني، فيتزعمه المرحوم عبد الله كنون، في كتابه "النبوغ المغربي في الأدب العربي" حيث يؤكد أنه كانت لابن تومرت فكرة إصلاحية، عمل على تنفيذها بالوسائل المألوفة، قبل أن يكون طالب ملك، يرتكب كل محظور للحصول عليه، بعيدا عن كل تدليس وشعوذة وعظائم الأمور. معتمدا على رأي ابن خلدون السابق الذكر. إلا أنه يضيف أن الحملة التي كانت ضد ابن تومرت، تزعمها الفقهاء الذين فقدوا حظوتهم، التي كانت موقرة لهم أيام المرابطين، لتكذيب كل ما يتعلق بقيام ابن تومرت بالتوحيد للحق والنعي على أهل البغي. بل ذكر أنهم طعموا حتى في نسبه إلى أهل البيت، ومن ثم الطعن عليه في كل ما قيل حسنا عنه، حتى أنكم كذبوه في كل مدعياته.

كما تساءل البعض، ومنهم ابن خلدون، بعد الحديث عن تقشف ابن تومرت وحصوره وصبره على المكاره والتقلل من الدنيا، عما كان يقصده من دعوته، إن لم يكن وجه الله؟ وهو لم يحصل له حظ من الدنيا في عاجله؟ كما أنه لم يقم لطلب ثأر له عند المرابطين، لكونه من المصامدة، والمرابطون من صنهاجة. لأن الثابت كما يقول، إن دعوته تبعتها مختلف القبائل، لأنها قامت على شعار التوحيد، لأنها دعوة دينية أكثر منها عصبية قبلية. بالرغم من أنه في البداية ركز على المصامدة، بعد أن يئس من استمالة العلماء والفقهاء، الذين عوض مساعدته، قاوموه وحرضوا أمير المسلمين عليه.

لقد ذكروا أن ثورته هذه أضرت بالمغرب ضررا بالغا، واغتصبت دولة المرابطين في عنفوان شبابهم، فكانت أثرت سلبا على النظام الاجتماعي والعقائدي والتشريعي، الشيء الذي انعكس على الحياة الأدبية، فظهر الأدب في مظهر مختلف.

كما تبث أن ابن تومرت كان يدعو إلى الأخذ بمذهب الأشاعرة في الاعتقاد، وخاصة في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث. حيث لم يكن المغاربة/الفقهاء يميلون إليه، بل يأخذون بمذهب السلف في ترك التأويل وإقرار المتشابه، حتى اتهموا بالتجسيم وبالتالي اتهموا بالكفر. كما كان الموحدون يقولون بقول الشيعة الإمامية من عصمة الإمام. وألف ابن تومرت في ذلك كتاب أسماه: أعز ما يطلب. وعنه يقول ابن خلدون: إنه خال من البدع إلا من القول بعصمة الإمام، حيث مزج بين المهدوية والإمامية. كما كان ألف آخر قبله، أسماه: المرشدة، وكان خاليا من هذه البدعة.

نذكر هذه القضايا الفكرية، وقبلها وبعدها التاريخية، لأنها سيكون لها حضور متميز في المنجز الأدبي، شعره ونثره، والذي سيتأثر بالعقيدة والمذهبية الموحدية التي تفردت بها هذه الدولة عن غيرها.

أخبار كثيرة جدا عن طريقة تمكن ابن تومرت من حكم المغرب، وهي متناقضة ومختلفة بين الشرعي والمشوه. تنظر في المصادر والمراجع.

ورغم ذلك ننطلق مما أثبت في المصادر التاريخية، من أن دعوة ابن تومرت، ما كانت لتنتشر وتنتصر، لولا شيخوخة الدولة المرابطية واستنزاف قواها في المحاولات الكثيرة الفاشلة، لتهدئة الأوضاع في البلاد وفي المحافظة على الأندلس، حتى تمكن الضعف من بعد العز، وانتشار المنكر بعد الصلاح، وذلك فساد كل الأوضاع واستكانة الحكام، بعد وفاة حكام

المرابطين الكبار الأوائل، واستقلال الولاة بالأقاليم، وبروز دور المرأة زوجاتهم في غير محله السياسي الصائب في أمور تسيير الدولة، كما قيل. وهي أمور كافية إذا استفحلت في كل البلاد، ليتطلع السكان ويبحثوا عمن يعيد أمجاد الدولة وأمنها، ويدبر أمر أطرافها المترامية أيام عز الدولة زمن يوسف بن تاشفين. فلاقت على إثر ذلك دعوة ابن تومرت قبولا ومناصرة وتأييدا من طرف القبائل الكبرى في المدن والقرى، وكذلك من طرف أهل الأندلس، مما ساعد على تفشي العصيان على حكم ما تبقى من حكام الدولة المرابطية وولاتهم، ومناصرة دعاة الإصلاح تغيير المنكر، من أمثال عبد المومن بن علي الكومي (ت 558هـ)، الذي يعتبر مؤسس الدولة الموحدية، والذي يقول عنه عبد الواحد المركشي، مؤرخ الموحدين في "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" ص 192: أنه سمي بلقب أمير المؤمنين خلال معركة البحيرة سنة524هـ، حيث أمّره المهدي بن تومرت على جيش الموحدين، فقال: أنتم المؤمنون وهذا أميركم. وكان عبد المومن قد لقي ابن تومرت عند قفوله من المشرق، واكتفى بعد لزومه له، بأخذ عقيدته ومذهبه.

كما كان جهز جيشا كبيرا أيامه لغرض مهاجمة المرابطين، وخرج به من قاعدة تنميل سنة 535هـ، اتجاه شرق المغرب وجنوبه، حيث أضعف قوى المرابطين هناك، حتى حل الوهن بهم، لأن كل قواهم كانت مرتكزة في مراكش. وفي أثناء ذلك كان توفي علي بن يوسف سنة 537هـ، وخلفه ابنه تاشفين، لكنه لم يتمكن من مقاومة جيوش عبد المومن الكومي بتلمسان ووهران وسبتة وسلا، حتى بلغ فاس، التي استسلمت للموحدين سنة 540هـ. قبل التوجه إلى لمراكش التي استسلمت سنة541هـ، أيام إسحاق بن علي بن تاشفين. حيث سمي آنذاك عبد المومن بن علي الكومي بالخليفة، الذي حكم المغرب أربعا وثلاثين سنة. عمل خلالها على نشر العقيدة الموحدية، وعلى توحيد البلاد ومد أطرافها إلى المغرب الأوسط، ووحد تقريبا كل

الشمال الإفريقي تحت إمرته. كما اهتم بأمر بالأندلس، ودفع عنها العدوان النصراني المستمر. وفي سنة 580هـ توفي مستشهدا بالأندلس. ثم بويع لإبنه يعقوب المنصور الذهبي، الذي بلغت الدولة في أيامه أوجها ومنتهى القوة والعظمة. وكان عهده عهد استقرار وأمن وعدالة، واشتهر بانتصاراته الحربية، وبخاصة في معركة الأرك سنة 591هـ، ضد ألفونس، ثامن ملوك قشتالة. كما اشتهر أن صلاح الدين الأيوبي استنجد به في حربه ضد الصليبيين، فرفض، ليس لأنه كما قيل، لن يخاطبه بأمير المؤمنين، بل لأن صلاح الدين كان سنة568هـ أرسل لفتح طرابلس وما والاها، وتعاون مع بني غانية، بقية المرابطين، ضد الموحدين. أضف إلى ذلك أن صلاح الدين كان مقيما لدعوة العباسيين في مصر، والتي كان الموحدون قد استقلوا عنها بالتدرج إثر سقوط المرابطين.

توفي المنصور سنة 595هـ، وخلفه ابنه محمد الناصر، واشتهر عن مدته أنها شابهت أيام والده في الاستقرار والأمن والعناية بأمر الأندلس، إلى أن انهزم في وقعة العقاب مع النصارى سنة 609هـ، والتي عجلت بسقوط الأندلس، وسقط الموحدين بعدها بنصف قرن تقريبا.

كما قلنا، سيساعدنا كل ما سبق، على فهم التأثيرات الكبرى لمذهبية وعقيدة الدولة الموحدية على المجال الأدبي في المرحلة، وبخاصة في شقه الشعري. فماذا نعني بمذهبية الدولة؟ وما هي الأفكار الكبرى للعقيدة الموحدية التي شغلت الأدباء والشعراء خاصة؟ وشغلت الفقهاء والفلاسفة والمفكرين عامة؟ وإلى أي حد عبر الشاعر الموحدي في خضم كل الإديولوجيات الموحدية عن ذاته وعن مطامحه ورؤيته للعالم؟ وما هي بالتالي المميزات الفنية التي تميز بها شعر المرحلة؟ وهل حققت القصيدة الموحدية خصوصية محلية برزت عبرها عبقرية الشاعر المغربي؟ وما هي الحدود الشكلية للقصيدة الموحدية؟

لقد سبق أن تحدثنا عن العقيدة الموحدية، التي سنجد لها أصداء كبرى في أغلب النتاج الأدبي للمرحلة، وخاصة في غرض المدح، الذي له صلة بالمحيط السياسي والديني والاجتماعي. ولا بأس أن نجمل هنا عقيدتهم في ما يلي: العقل بدل النقل، باتباع منهجية الأشاعرة، والحجة والمنطق في الدفاع عن العقيدة، والتأويل بخصوص المتشابه، للابتعاد عن التجسيم، والقول بعصمة الإمام، وخلط الكل بمبادئ الأشاعرة والشيعة. فكانوا بذلك على طرفي نقيض مع الخطوط العريضة التي اعتمدها المرابطون. على أننا سنتحدث في الأخير عن أن الموحدين، بعد تقادم عهدهم، سوف يتنكرون لمبادئ الشيعة ويتخلون عنها، بل إنهم سيحاربون مبادئ المهدي في العصمة، وخاصة زمن المأمون بن يعقوب ، والذي سيقول في بعض خطبه: أيها الناس، لا تدعوه بالمهدي المعصوم، وادعوه بالغوي المذموم، فإنه لا معصوم إلا الأنبياء، ولا مهدي إلا عيسى، وإنا قد نبذنا أمره النحيس.

وكان الشعر في مرحلة أخيرة من حكم الموحدين آزر، كما قال بعض الباحثين، التراجع عن الاعتقاد بالمهدوية، بلغ أوجه مع أبي العلاء المامون، وهو يتبرأ من الإمام المهدي، والذي كان أسقط اسمه من خطبة الجمعة، كما يقول الشاعر ميمون الخطابي:

وجد النبوة حلة مطوية//لا يستطيع الخلق نسج مثالها

فأسر حسوا في ارتغاء يبتغي//بمحاله نسجا على منوالها

أحدث الموحدون ثورة شملت كل ميادين الفكر والمعرفة والفنون والآداب والفقه والشريعة، من أجل بناء ثقافة مغربية لها خصوصياتها ومميزاتها التي تسمها بالاستقلالية، وتضمن لها الانفصال شيئا فشيئا عن التبعية المشرقية. مشروع الدولة الموحدية في ذلك، هو بناء عقل عربي مغربي جديد في ثقافته، متميز في ثقافته وأدبه.

تذكر جل المصادر أن نجاح الدعوة الموحدية في مجالات كثيرة، وما يهمنا هو المجال الثقافي والأدبي، يؤكد إحساس الخلفاء بالفن وتذوقهم لجماله، وإدراكهم لوظيفته الهامة في الحياة الخاصة والعامة؛ فقد كان منهم من قرض الشعر وكتب الرسائل والخطب، كما أنهم من فرط تفقههم في الأدب وتذوقهم له قربوا العلماء، وأحبوا الأدباء، وأغدقوا المال على الجميع، وأصغوا إلى مدائح الشعراء وأثابوهم على قولهم، مما أسهم في ازدهار الشعر والحياة الأدبية عامة، التي شارك فيها الخليفة الموحدي والأمراء، إلى جانب الشعراء المغاربة والأندلسيين.

كما أسهمت المجالس العلمية والندوات الفكرية، التي كانت تنعقد بمحضر الخليفة، وينشط فيها القول الشعري، في تنشيط الحركة الشعرية، حيث برز عديد من الشعراء في المرحلة، مثل عبد المومن بن علي الكومي وابن حبوس وأبي الربيع سليمان الموحدي وأبي حفص الأغماتي وأبي العباس الجراوي وميمون الخطابي وابن الياسمين، واللائحة طويلة.

لقد مثل العصر الموحدي ملمحا من ملامح العبقرية الأدبية المغربية، في الزمان من حيث أنه تميز عن ثقافة ما كان قبله وامتد تأثيره فيما بعده، وعبر المكان من حيث أنه خصص اهتماما بالغا لأمور مناطق نفوذه، وبخاصة الأندلس.

إن اعتماد التغيير ورفع لواء التجديد والتصحيح، وإحياء علوم الدين الذي اعتمده الموحدون، هو ما وسم عصرهم بالذهبي، على المستوى السياسي والحضاري والثقافي والأدبي، ومن ذلك ما دعوا إليه من نبذ التقليد ومن اتباع الفروع، والعودة إلى الأصول في العقيدة والشريعة، والاهتمام بالفلسفة والترجمة والنحو وعلم الكلام والأدب، ومن تم التوقف عن تقليد المشارقة، بغية بناء ثقافة إسلامية جديدة سليمة في المغرب الأقصى، تستفيد من كل العقائد والمذاهب، على اختلافها وتباعدها. مثال ذلك ما كان أمر به أبو يوسف يعقوب بن عبد

المومن ابن رشد الفيلسوف، بشرح مؤلفات أرسطو بعد ترجمتها، وذلك بالرجوع إلى الأصول الفلسفية، وترك أعمال كثيرة للمشارقة في المجال. وذلك بعض من جوهر خطابات الموحدين، التي دعموا من خلالها الدين بالعقل، والشرع بالحجة والمنطق، محاربين معتمد أمراء المرابطين المتمثل في القياس عامة، وقياس الغائب على الشاهد خاصة، باعتباره منكرا لا بد من محاربته، لأنه يبعد عن الأصول من قرآن وسنة، كما يرى الموحدون، وهو ما كان أسقط المرابطين في التجسيم والتجسيد والتقليد، الذي يحكم الشريعة بالظن والتماس المعاني بالتخمين، من غير تحقيق ولا التفات إلى الأصول. كما جاء في أعز ما يطلب. ص 35.

يقول أبو حفص الأغماتي: هذا كتاب الله يهدي الورى// لكل علم نوره الساطع
لمعرفة الله وآياته// ومنهم الرسول وما الرابع
والعلم والحكمة في طيه//أجمع وهو المعجز الساطع
وهو من الله فما فوقه//هاد إلا الله وشافع

لقد وجه الخلفاء الموحدون العلماء والأدباء، والشعراء على الخصوص، إلى احترام مبادئ رؤيتهم النقدية للمعرفة وإديولوجية الدولة، من أجل بناء خطاب ذي خصوصية موحدية، تبعد البلد عن سلطة العباسيين والفاطميين في المشرق، وبقايا المرابطية في المغرب، التي سقط نظامها، بحسبهم، في التجسيم والتقليد بابتعادها عن التأويل واستعمال النظر والعقل والجدل. لقد فتح الموحدون للعلماء بالمغرب والأندلس باب الاجتهاد، واستغلوا ضعف فقهاء المالكية، الذين لم يقووا على تطويع وتطوير المذهب المالكي، كما قال الباحثون، ليساير المعطيات الجديدة التي يتطلبها مجتمع المغرب الجديد، مما جعل المهدي بن تومرت يبدأ دعوته السياسية بمهاجمة الفقهاء، الذين ضيقوا دائرة الاجتهاد والتفكير، باهتمامهم البالغ بعلم الفروع، الذي أوصلهم إلى التجسيم والتجسيد، فحق عليهم الجهاد في نظرهم. يقول أحد الشعراء عن اندحار وانهزام المرابطين أمام قول الموحدين:

هو الفتح لا يجلو غرائبه الشرح//أصاب بني التجسيم من بأسه ترح

أتتنا به البشرى على حين غفلة//بمهلك قوم كان موعدها الصبـــح

أما على المستوى الفكري، فقد قامت التومرتية على أساس الإمامة، وادعى ابن تومرت أنه المهدي المنتظر، فانقسم المفكرون إلى مؤيد ومعارض، ورغم ذلك انتصرت المهدوية، لأن الاجتهاد الذي قامت عليه جعلها تحمل الجديد بالنسبة للمفكرين، برجوعها إلى الكتاب والسنة، مصدري العقل والعلم والحكمة، وبالرجوع إلى اجتهاد الصحابة، واعتماد علمي الأصول والكلام. وهي دعوة أرغمت فقهاء المالكية على ترك الكثير من تعصبهم وانغلاقهم على التقليد والفروع في الفكر والسياسة. ليتحول المغرب ومعه الأندلس إلى قبلة للعلماء في عواصمه العلمية الكبرى، كفاس ومراكش وسبتة وسوس وطنجة وتافيلالت، مما شجع العلماء، من سائر الأقطار زمن الموحدين، للقدوم إلى هذه المراكز العلمية، حيث أغدق الخلفاء عليهم الهبات والصلات، وحثوهم على البحث والتأليف في العلوم ومختلف الفنون، وخصوا الأدباء بعناية خاصة معنوية ومادية، لإحساس الخلفاء بالفن، وتذوقهم للجمال، وفهمهم له وانتقاده، لأن منهم من قرض الشعر كابن تومرت. وتذكر المصادر مكانة المنصور الأدبية والنقدية وحبه للفلسفة. كما قالوا عنه إنه أديب ينظم الشعر وينقد القصيد، وكان كاتبا خفيف الروح، يكتب الجواب، فتجد في مطالعته لذة فائقة، وكان بعد هذا كله محبا للفلسفة.

كما قيل، إن عبد المومن بن علي أعطى الشاعر محمد بن أبي العباس التيفاشي(ت 651هـ) ألف دينار على بيت واحد، قبل أن يتم الشاعر سرد قصيدته الطويلة:

ما هز عطفيك بين البيض والأسل // مثل الخليفة عبد المومن بن علي

إنه البيت الذي علق عليه عبد الله كنون في النبوغ (ج 1ص119)، بأنه المطلع المطرب، والبيت البليغ، الذي قال فيه كل شيء، ويكفي عبد المومن فخرا أن سماه الشاعر بالخليفة.

كما يروي صاحب المعجب(ص 314) الكثير من القول عن تذوق الخلفاء للشعر، من مثل إنشاد الأصم المرواني يمدح عبد المومن بن علي بجبل الفتح، معارضا بائية أبي تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب

قال : ما للعدا جُنة أوقى من الهرب .....

فقال عبد المومن رافعا صوته: إلى أين...إلى أين ...؟ فقال الشاعر:

.....//كيف المفر وخيل الله في الطلب

وأين يذهب من في رأس شاهقـــة//إذا رمتـــه سماء الله بالشهـــب

حدث عن الروح في أقطار أندلـس// والبحر قـد ملأ العبرين بالعرب

فلما أتم القصيدة قال عبد المومن: بمثل هذا تمدح الخلفاء. فسمى نفسه خليفة كما ترى.

وأنشد رجل من أهل إشبيلية يعرف بابن سيّد، ويلقب باللص:

غمِّض عن الشمس واستقصر مدى زحل//وانظر إلى الجبل الراسي على جبل

أنَّـــى استقر بـــه، أنَّى استقـل بـــــه//أنّـــى رأى شخصه العالي فلم يَزُل

فقال له عبد المومن: لقد ثقَّلْتنا يا رجل، فأمر به فأُجلس، وهذه القصيدة من خيار ما مدح به، لولا أنه كدَّر صفوها بهذه الفاتحة. كما قال عبد الواحد المراكشي في المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص151.

جاء في نفح الطيب حديث كثير عن تذوق الخلفاء والأمراء في الدولة الموحدية، ولكل ذوقه الخاص في ذلك، ومنهم من امتلك ثقافة نقدية، عبرت عنه تعبيره بمصطلحات نقدية، امتلكها من مجالسة أهل التخصص، كالاهتدام والنقل والسرقة، مصطلحات استخدمها الحكام في نقد شعرائهم، وتوجيههم للقول الصائب في العديد من المناسبات والمواقف. وهو ما جعل ثلة من شعراء المرحلة يأخذون المسألة مأخذ الجد والتمثل. بالإضافة إلى الندوات التي كانت تقام وتعقد تحت إشراف الخليفة أو الأمير الموحدي، الذي كان يفتتح مجلس العلم والأدب

في القصر أو المسجد، بإلقاء مسألة على الحاضرين، ويشاركهم في جدالهم العلمي أو الأدبي. كما كان يختار الخليفة الموحدي العلماء من المراكز العلمية لمقارعتهم في العلوم التي يتخصصون فيها.

كما يشهد عديد من دارسي العصر الموحدي برعاية الخلفاء للعلم والعلماء، حتى أنهم ذكروا أنه كان يستدعي لمجالس العلم العديد من العلماء والفقهاء والأولياء، فينال الجميع من إنعامه، وبالأخص منهم الشعراء.

لقد كان لاعتماد العقيدة الموحدية على العقل والجدل، أثر في تحرير الفكر المغربي والأندلسي، الذي، كان كما قيل، رانت عليه أدران الجمود والتحجر، المفروضين من طرف فقهاء المرابطين، وتجلى ذلك في التحرر الملحوظ في النشاط العلمي والأدبي الهائلين اللذين عرف بهما العصر، حيث لم تعد هناك علوم محظورة، وأخرى يمكن الاشتغال بها، كما كان الشأن فيما قبل. حسن جلاب في كتابه: الدولة الموحدية، أثر العقيدة في الأدب. ص43.

لقد نجح الموحدون في بث أفكارهم وعقيدتهم في جل الأوساط الفكرية بالمغرب والأندلس، عقيدة تحمل مواصفات العظمة والتدين والتحرر والتجديد في كل شيء. يقول محمد بن تاويت: نهضت على حلم عظيم، أرادت أن تحققه بكل عزم وفي كل الميادين، ذلكم الحلم هو الثورة على كل شيء؛ الثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية، الثورة على مناحي التفكير في العقائد والأحكام والعلوم عامة، الثورة بالتجديد في كل شيء، وبإعادة صرح الدولة الإسلامية الكبرى قويا شامخا عظيما مهيبا. مقال: أصداء في الأدب الموحدي. دعوة الحق.ع9/سنة 1968ص93.

كماذكر الأصبهاني في خريدة القصر وجريدة العصر(ص 167) شعرا لابن تومرت يعكس ذلك:

وإني وفي النفس أشياء مخبأة//لألبســـن لهـــا درعـــا وجلبـــابا
كيْما أطهر دين الله من دنس//وأوجب الفضـــل للسادات إيجـــابا

تا الله لو ظفرت كفي بمطلبها//ما كنت عن ضرب أعناق الورى آبى

لقد كان للجانب السياسي أثره المباشر على الإبداع الشعري الموحدي، إلى حد أخذ معه الشعراء يسعون إلى إرضاء الخليفة والأمراء. حتى أصبح، كما قيل، العهد الموحدي عهد خطاب جديد، من الناحية السياسية والاجتماعية والثقافية والفنية.

يقول أبو العباس الجراوي: بجد عزمك نال الدين ما طلبا//وأحجم الشرك عن إقدامه رهبا

وأيقيتْ ملـــةُ الإسلام أن لها//بك الظهور على الأعداء والغلبا

سينظم السعد مِصرا في ممالكه//حتى تُدوخَ منهـــا خيلُه حَلَبَا

إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى//أقصى خراسان يلقى جيشُه الرعبا

هو الذي كانت الدنيا تؤملـــه//وكل عصر لـــه ما زال مرتقبا

لقد كانت، مما استنتج الباحثون من القول السابق، أن نية ابن تومرت كانت بعد الإطاحة بالمرابطين، أن ينقل الخلافة من المشرق إلى المغرب، تحت زعامة الموحدين. يقول صاحب المعجب(ص281): لقد افتتنوا بالمهدي المنتظر أشد الافتتان، عظموه وقربوه إلى أنفسهم وقلوبهم، وبلغوا حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك، من غير إبطاء. لقد اشتغلت فكرة المهدوية كثيرا في الشعر الموحدي، ممثلة أحد المضامين الأساسية المكونة للإبداع. والظاهر، عند معظم الدارسين، أن الشاعر مع الموحدين لم يستعمل عقيدة المهدوية في شعره من باب الترفيه عن النفس أو اللعب بالألفاظ والعبارات، وإنما كان مضطرا ومدفوعا إلى مغازلة الخطاب الموحدي، الذي استهلك الفكرة، وجعلها من أولوياته ومبادئه الأساسية، بل من عقيدته العظمى.

كما أن شعر وصف المعارك الموحدية وجهادهم، لم يكن ترفا استعراضيا فنيا، بل هو انعكاس لواقع ملموس ومعيش ومعتقد في الغالب، لأن الشاعر عايشه، حتى كانت القصائد شبه أسلحة معنوية للتحفيز والتحميس والترغيب في مغالبة الكفار، وإبقاء عقيدة الموحدين

هي الكفيلة بالحل والعقد في شيء، زمانا ومكانا. حتى قيل، إن الشاعر أسهم في استمرار الوجود الفعلي والضمني للموحدين، في الزمان والمكان، عن طريق الخدمات الجلى المقدمة، وعبر إذاعة الدعوة الموحدية، بما أوتي شاعر المرحلة من سحر البيان، وعظمة الكلمة، ومبالغتها. وهو عمل اعتبر كله في إطار خدمة للمذهبية الموحدية.

يقول أبو العباس الجراوي من الطويل:

دعاكم لما يحبيكم وارث الهدى//وجامع أشتات العلى والمفاخر
وأحزم من ســاس الديانة والدنا//وأكــرمُ مأمول وأحلــم قادر
إلى أمــره في كل أمــر ونهيه//يــروح ويغدو كل نــاه وآمر
إذا نامت الأملاك عما يهمها//رعى الدين والدنيا له طرف ساهر

ويقول أيضا من الطويل:

أخليفة المهــدي دمت مؤيــدا//بالله منتقمــا من الكفــار
ترمي شياطين الأعادي في الوغى//برجوم خيل من سماء غبـار

ويقول من البسيط:

بُـرء الإمام حياة الخلق كلهــم//عم السرور به وانثالت النعم
أفاض عدلا على الدنيا وألبسها//نورا فلم يبق لا ظُلْم ولا ظلم
وبت في كل إقليم هدى وندى//فليس يوجد لا جهل ولا عـدم
لولا سياسته ما كـان ممتلــئا//شعت ولا كانت الأسباب تنتظم
والله يختص أقوامــا برحمته//تجري بحكمتــه الأرزاق والقسم

هكذا نرى مع الشاعر، من خلال بعض شعره، أن الخليفة حقيق بالمدح والشكر، ما دام هو المصدر للنور والعلم والعدل، الذي بهما تتحرر العقول وتتبعها الأبدان.

كما ارتبطت عقيدة المهدوية بالعصمة، وتكاملت معها عند الشاعر في رسم صورة الخليفة الكامل المعصوم، الذي أوصله الشاعر إلى درجة الإيمان بعصمته كالنبي. يقول ابن حبوس يمدح عبد المومن: عجزت ولاة الحس عن إدراكه//فهو المنزه حسبه أن يعقلا

ويقول في حق المنصور: وفي الغيب من أنجاد طائفة الهدى//ونصر أمير المومنين غرائب

حقيـــق بميراث النبوة والهـــــدى//ولا عجْب أن المزايا مواهب

هو الأمر أمر الله ليـــس يفوته//مناو ولا ينأى عليه مُناصب

وما هارب منـــه ولو بلغ السهـــا//بناج وهل ينجو من الله هارب

لقد أعلى ابن حبوس الخليفة الموحدي ورقاه إلى مستوى أصبح معه موصوفا بالكمال والتنزيه. يقول: فلأنتم الحق الذي لا يمترى//فيه وليس بجائز أن يجهلا

ولأنتم ســـــر الإلاه وأمركم//ملأ العوالم مجمَلا ومُفصَّلا

كاثرتمُ زهـــــر النجوم أسنة//وأدرتمُ فلكا عليها القسطلا

ومنعتمُ الريح الهُبوب لأنكم//أرسيتُمُ الحَلَق المُضاعف أجبُلا

صدّت تمشّى القهقرى ولوَ انها//خاضت رماحكُمُ لعادت مُنْخُلا

على أن الشاعر الفحل عند الموحدين هو القادر على صون مبادئهم وترجمتها شعرا، فيكون عندهم مدعما ومحميا هو وأسرته ماديا ومعنويا، وبالمقابل يقدم له الخليفة عقيدةً متميزة، يستمد منها الشاعر مضمون شعره، ويهبه قوة وشعرية من خلال تضمينه للأفكار المدعمة للعقيدة التومرتية، الداعية إلى التجديد في أوسع وأبلغ صورة.

لقد بلغ بشاعر المرحلة أن قرن بين الخليفة والرب، حتى شبه أبو العباس الجراوي علاقته بالخليفة بالعلاقة بين العبد وربه، وأن عبادة الله تطالب بمدح الموحدين. يقول من الكامل:

مدح الإمام عبادة نرجو بها//عز الدنيا وأن نفـــوز مآبا

ما سافرت أذهاننا في مدحه//إلا وكان لها القصور إيابا

لقد كان للموحدين بلاطات للخلفاء والأمراء، وبها دواوين للكتاب والشعراء الرسميين في الخدمة، على عكس المرابطين. مما جعل لثقافة الخليفة الموحدي المتميزة، وحبه سماع شعر الجهاد، ومدح القائد الإمام، ووصف قوة الجيوش وضراوة الأسلحة وفتكها، والفتوحات وعلاقتها بالسيرة النبوية، والشعر النبوي في المديح، دورا متميزا في غزارة هذه الأغراض في العصر الموحدي، وجعل له إسهاما بينا في الدرس النقدي الشعري في المرحلة، حيث كان الخليفة من خلال آرائه وتوجيهاته في المجال الإبداعي يثري النقاش، ويدهش الشعراء، وخاصة عندما كان يملي شروطا نقدية على الأديب أحيانا حتى يساير ويستجيب الإبداع لمتطلبات الدعوة التومرتية. حتى جاءت قصائد العصر مطبوعة بالعظمة والقوة. يقول عباس الجراري في كتابه الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه(ج1ص101): لقد كان لمذهبية الموحدين أثر ملحوظ في إنتاج هؤلاء الشعراء، ولا سيما في المدائح، حيث يختلط المدح بمعان دينية، يتبلور من خلالها نوع من الشعر المتصل بالعقيدة والمذهب.

لقد أصر الخليفة الموحدي على نشر معتقده ومذهبيته، وجعل لسان الشاعر معبرا عنها خير معبر، يحمله مسؤولية إذاعتها في قصيدته، لحمل الناس على اعتناقها، ومبايعة الإمام قبل استعمال السيف، أو بموازاته، حتى قال الشاعر، إنه من مات ولم تكن في عنقه بيعة الإمام المعصوم مات ميتة الجاهلية، لأن العقيدة الموحدية هي المرشدة إلى الأبد. فكان المهدي بن تومرت هو المخلص، لأنه جعل نفسه أهلا للإمامة العظمى، وهو المقدم والأصل المفضل.

يقول الجراوي من الطويل: إمام له فضل على الخلق باهر//ورتبة تنحط عنها المراتـــب

ويقول من الخفيف: يا إمام الهـــــدى ملأت جمالا// وجـــلالا عيوننا والصدورا

كل نور للشمس والبـــــدر يبدو//أنت أصل له ومنك استعيرا

دمت للديـــن عصمة ومـــــلاذا//ولأعدائـــــه مبيـــدا مبيـــرا

جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵙⵉⴷⵉ ⵎⵓⵃⵎⵎⴷ ⴱⵏ ⵄⴱⴷⵍⵍⴰⵀ ⴱⴼⴰⵙ
UNIVERSITÉ SIDI MOHAMED BEN ABDELLAH DE FES

كلية الآداب و العلوم الإنسانية -ظهر المهراز
ⵜⴰⵖⵡⵍⴰⵜ ⵜⴰⴷⵓⵔⵉⵜ ⴰ ⵜⵎⴰⵏⵜⵉⵜ ⵜⵉⵔⴰⵣ - ⴹⵀⵔ ⵍⵎⵀⵔⴰⵣ
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines - Dhar El Mahraz